قصائد المعارضات- دراسة فنية البردة ونهج البردة أنموذجا

أ.م.د. إسماعيل خلباص حمادي
أستاذ النقد العربي المساعد
كلية التربية - جامعة واسط

المقدمة

هذه دراسة رمت من ورائها أن أبحث في العلاقة التي تربط بين قصائد المعارضات متخذاً البوصيري في البردة وشوقي في نهج البردة أنموذجاً مهماً لهذه الدراسة، ولعل القصيدتين والشاعرين والغرض الموحد سببٌ مهمٌ في الاختيار لهذين الأنموذجين وفي الوقت نفسه اعتقد أن هذا الاختيار يوفر دراسة تأتي بشيء يصلح أن يعممَ على قصائد المعارضات مع يقيننا أن القصائد التي تنهج هذا النهج لها أساليبها وطرقها المختلفة التي تتأثر بالقصيدة وغرضها وشاعرها وحقبتها الزمنية وظروف نظمها إلى غير ذلك.

قصائد المعارضات

حفل الشعر العربي منذ الزمن القديم بظاهرة قصائد المعارضات [١]، ويبدو أنها ظاهرة طبيعية وصحية تؤشر مدى التواصل بين الشعراء القدامى والمحدثين، وفي الوقت نفسه تعطي الدليل على أن الشعر ((صياغة وضرب من النسج)) [٢]، وكما يتدرب الصانع المبتدئ في الصناعات الأخرى على أمثلة يحتذيها بعد أن يعجب بها وبصياغتها وموضوعها ومعانيها، وقد أشار إلى ذلك النقاد العرب القدامى[٣]. والأمر لا يخلو من أن يحسن المقلد فيبتدع أشياء جديدة تضاف إلى الأصل أو انه لا يبتعد كثيراً عن منحى سابقه

وقد يقصر عنه، وفي الأدب عامة والشعر خاصة نسج الشعراء على منوال الأقدمين من باب التمرن والتدريب المعزز بحفظ شعرهم((حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها)) [٤]، ذلك الحفظ المبني على التلمذة الفعلية على يد الشاعر السابق أو التأثر بأسلوب شاعر ما في ديوانه أو في قصيدة من قصائده أو غير ذلك، لذلك كان النقاد قديماً ينصحون الشعراء المبتدئين بكثرة الحفظ ومحاولة نسيان المحفوظ[٥].

ولعل من بين الأسباب المهمة في وجود قصائد المعارضات رغبة الشعراء اللاحقين في مجاراة الشعراء السابقين أو قد يكون أختباراً للقدرة على الإبداع ليقيس براعته الفنية في الأداء والأسلوب ليعرف مدى قدرته على الخلق الفني هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هناك موضوعات شعرية لغيرهم يرغب أكثر الشعراء أن يلجوها وينظموا فيها لأسباب سياسية أو دينية أو اجتماعية أو فنية أو غير ذلك، فإذا وجدوا أنهم سبقوا إلى النظم فيها راحوا يتسابقون معه كما حصل في مدح الرسول الأعظم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى آله [٦].

ويبدو أن هذه الظاهرة – أقصد المعارضات الأدبية – جاءت من ظاهرة أوسع تلك التي نظر إليها النقاد على مر العصور ضمن موضوع السرقات الأدبية وراح أكثرهم يفتش عن الأبيات المتشابهة بين الشعراء وأخذوا يوازنون وفقاً لمبدأ الأسبقية ومحاسبة الشاعرين على هذا الأساس [٧]. وسواء أصرح الشعراء بمعارضاتهم أم لم يصرحوا فإن ذلك مسوغ لان الأدب صناعة مادتها الأولية اللغة بمفرداتها وتراكيبها وأساليبها، وانتقال كل ذلك أو بعضه من السابق إلى اللاحق عن طريق الاقتداء أو التقليد المقصودين أو غير المقصودين أمر حاصل كالذي يحصل لكل الناس في مراحل طفولتهم أو مراحل حياتهم الأخرى [٨]، فالأشخاص القريبون من بعضهم تحت أي ظرف يتفقون في ألفاظ أو تراكيب أو أساليب وهذا الاتفاق مبني على التقليد والإعجاب[٩] وبهذا ممكن أن نفسر اللغات أو اللهجات وتعددها وقرب بعضها أو بعده، وعلى كل حال فإن هذا الفهم يمكن أن يفسر لنا ظاهرة قصائد المعارضات فالشعر يعتمد أول ما يعتمد المران والدربة والممارسة المبنية على الحفظ والإكثار منه والتلمذة على أيدي الشعراء السابقين كما سبقت الإشارة إلى ذلك. لذا يصبح من البديهي أن يتبصر اللاحقون بأساليب السابقين وخيالاتهم وصورهم

وتراكيبهم وأفكارهم ومعانيهم ليلتقطوا من هنا أوهناك وينقلوا معنى من هذا الغرض إلى ذاك ويوجزون ما كان مفصلاً أو يفصلون ما كان موجزاً إلى غير ذلك مما يفعلون.

والباحث يرى أن هذه الظاهرة صحية ولا تعد عيباً على الشاعر سواء أكثرت معارضاته أم قلت قديماً كان أم حديثاً مقلاً أم مكثراً، ولتسليط الضوء على هذه الظاهرة أرى أن نكتفي بأخذ قصيدة البردة للبوصيرى أنموذجاً لهذه الدراسة وكيف عارضها أحمد شوقي في ((نهج البردة)) وهذا الاختيار يجنبنا تشتت الموضوع واتساعه في الوقت الذي نستطيع أن نصل بهذا الاختيار إلى أفكار قد تنطبق على كثير من قصائد المعارضات فضلاً عن أن هذا الاختيار يجعل الدراسة تدخل في الممكن أو المعقول فليس من المنطق أن نخضع الشعراء جميعهم إلى البحث في بحث كهذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن شوقي صرح بالاقتداء بقصيدة البردة كما سنوضح ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله وهذا يعني إننا أمام شاعر يعي المعارضة ويقصدها ويدرك تماماً أن النقاد والباحثين من بعده سيلتفتون إلى ذلك ويكون نقدهم مبنياً على ذلك الوعي ولا مجال للاعتذار عن أي شيء، إذن أرى أن هذا الاختيار تتوافر فيه العلمية والموضوعية فضلاً عن أن شوقي من الشعراء المحدثين المشهود لهم بالشاعرية ومن الذين لهم باع طويلة في المعارضات فقد عارض كثيراً من الشعراء القدامى والمحدثين وفي موضوعات وأغراض مختلفة(١٠).

وفي البدء نناقش الآراء التي ترددت في كتب النقد والأدب حول هذا الموضوع وفي مقدمة ذلك ((حرية النظم)) فقد شاع أن السابق أكثر حرية من اللاحق وليس هذا صحيحاً مثلما أمام السابق موضوعات الشعر وأغراضه وأوزانه وقوافيه وله أن يختار منها ما يشاء فالأمر لا يختلف كثيراً عن الشعراء اللاحقين فأمامهم الشعراء وقصائدهم وموضوعاتها وأوزانها وقوافيها وما عليهم إلا أن يختاروا ما يهيج مشاعرهم ويقع من نفسه موقعاً محبباً وعلى هذا لا صحة لما يذهب إليه بعض النقاد والباحثين من أن السابق أوفر حظاً من اللاحق إلا إذا كان الشاعر مجبراً على المعارضة وقد يحصل ذلك قليلاً(١١).

واللافت للنظر أن النقاد والباحثين يطلبون من اللاحق أكثر مما يطلبون من السابق لا لشيء وإنما لأنهم يرون أن الطريق أصبحت معبدة أمامه وما عليه إلا أن يسير فيها سيراً

محموداً وأرى في ذلك حقاً وموضوعية لأننا نتصور أن الشاعر المعارض قرأ القصيدة وحفظها وانتهى الأمر ليأتي ويعارضها بهذه البساطة وإنما ما يحصل هو تبصر وتفحص كل كلمة وكل تركيب وصورة وخيال، لذا يتجول الشاعر اللاحق بقصيدة السابق مرات ومرات ويتلمس فيها كل حرف جيداً لأنه الآن ينظم قصيدة ليست كقصائده الأخرى فقد اختار طوعا أن يضع نفسه في امتحان صعب لأنه يعرف جيداً كما قلت أن النقاد سينظرون بعيونهم جميعها إلى قصيدته ويكونون أشد عليه من أي نقد لقصيدة من قصائده الأخرى فهو الآن يقبل أن يكون في موقف المتحدي أو المبارز في ميدان الشعر.

ومن الجدير بالذكر أن المعاني التي وجدناها في تلك القصائد لا تختلف كثيراً من قصيدة لأخرى والإبداع يكمن في قدرة اللاحق على خلق الأسلوب الأكثر تأثيراً في القارئ وعرض الأفكار والمعاني بصورة فنية تأسر القارئ خاصة إذا كانت القصيدة السابقة قد ذاعت شهرتها وتداولتها الألسن كالبردة التي عارضها الشعراء قديما وحديثاً بمئات من المقطوعات ((لكن الصيت بقي لهذه البردة وحدها إلى الآن، على أن قصيدة شوقي وأن لم تزحزحها عن مكانتها فإنها قد نالت شرفاً ليس له نظير)) (١٢)، ولعل شوقي من أكثر الشعراء ميلاً إلى معارضة الشعراء في قصائد لها تقدير كبير لدى القراء وموضوعها يستهوي الكثير الكثير فهو ((يقلد أعمالهم الكبرى يريد أن يظهر مقدرته وتفوقه، إذ يتلقى عنهم، ويتفاعل معهم))(١٣).

وأرى أن قصائد المعارضات يكون موقف اللاحق فيها أصعب بكثير من نظمه لقصائد أخرى لا ينوي فيها المعارضة ذلك أن القصائد السابقة كالبردة حفظها الناس واستساغوها وأصبحت صورها وأخيلتها لا تختلف عن أمور حياتية اعتادها الناس، فإذا اعتاد الإنسان على أمر ما لحقبة زمنية ثم تغير ما اعتاد عليه فستجد صعوبة كبيرة إذا لم تعد العدة وتكون قادراً على إيجاد البديل الأكثر إغراء له وإن لم يحصل ذلك فانك على العكس تثبت ما اعتاد أكثر وقد يأخذ موقفاً سلبياً مما نريده له إذن الأمر في المعارضات ليس كما يعتقد بعض الباحثين أنه معارضة وحسب، وإنما هو أمر محفوف بالمخاطر وقد يخسر اللاحق شاعريته أو يكون في موضع سخرية إذا لم يتمكن من التجويد.

وقد تعرض الكثير من النقاد إلى هذا الموضوع سالكين فيه منهج الموازنة بين القصائد كما فعل مثلاً زكي مبارك في كتابه ((**الموازنة بين الشعراء**)) إذ يقول مثلاً

((للبوصيري قصيدة مشهورة تسمى البردة عارضها شوقي بقصيدة سماها نهج البردة وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام))(١٤).

ولعل منهج الموازنة هو المنهج الأنسب إلى نقد وتحليل تلك القصائد ذاك إذا علمنا أن هذه القصائد ((**المعارضات**)) فيها مؤهلات الموازنة كما دعا إليها الآمدي **((القصيدة والغرض والوزن والقافية والمعاني الجزئية المتفقة بين الشعراء))** إذ يقول **((أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما – يقصد أبا تمام والبحتري – إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى..))** (١٥)، ولكن الموازنة لا تؤتي ثمارها إذا اعتمدت على أسلوب الإحصاء كأن يقال هذا أكثر معاني من ذاك أو تكون مجرد إعجاب بخيال أو صورة شعرية فيقال هذا رائع أو هذا جميل إلى غير ذلك مما وجدناه في الموازنة بين تلك القصائد في الكتب المشار إليها ككتاب زكي مبارك (١٦).

وأرى من الضروري أن يتبصر الباحث كما يتبصر الشاعر بتلك القصائد وأن يراقب اللاعبين في ساحة واحدة وقد يضطر أن يعتمد أسلوب الإحصاء وذلك يجب أن يكون وسيلة لا غاية؛ وسيلة لان يعرف مثلاً هذا المعنى كم بيتاً استوفاه الشاعران وكيف وصل إلى المتلقي وكثرة عدد الأبيات أو قلتها لا تؤثر في شاعرية الشاعر وإنما معالجة المعنى وظهوره على أتم صورة وأكثر تأثيراً على المتلقي، ثم أن الشاعرين يستخدمان اللغة نفسها وهذا لا يعني أن اللاحق يبقى يدور في فلك السابق بل على العكس أن يحلق أكثر ويفعل كما فعل أحمد رامي حين ترجم رباعيات الخيام والحق أنه لم يترجم الرباعيات وإنما عارضها وسميت ترجمة لان الرباعيات في لغة وما فعله أحمد رامي في لغة أخرى (١٧).

وقصائد المعارضات لا تقيد حرية اللاحق فهي ليست قفصاً يوضع فيه الشاعر كما يوضع الطائر المغرد وكثيراً ما ترى طائراً مغرداً يتجاوز حدود القفص ولو أن الأنغام تتأثر بأجواء التغريد ولكن مع هذا قد يكون من الممكن جداً أن القفص يكون فيه دفع اكبر للشاعر المعارض لان يغرد أجود ولان يضيف أنغاماً جديدة إلى القصيدة التي يعارضها.

وعلى كل حال فإن أحمد شوقي عارض قصيدة البوصيري ((**البردة**)) التي مطلعها :

أَمِن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

بقصيدةٍ سماها (**نهج البردة**) ومطلعها :-

ريم على القاع بين البان والعلم احلَّ سفك دمي في الأشهر الحرم

وقد أشار فيها إلى أنه لم يكن راغباً في معارضة الإمام البوصيري وعدّ نفسه والمادحين مقتدين به لتقدمه ولمنزلته مشيراً إلى أن مديحه حب خالص وصادق لذا كان كلامه صادقاً معبراً عن صدق المشاعر وعدَّ نفسه مجرد متمن كما كان الآخرون:

المادحون وأرباب الهدى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه قيل حب خالص وهوى الله وصادق الحب أعلى صادق الكلم
يشهد أني لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم
وإنما أنا بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

والقارئ للقصيدتين يرى بوضوح أن شوقي كان يقصد معارضة البوصيري وهناك الكثير مما يشير بوضوح كاف إلى ذلك بدءاً بالنسيب وذكر اللائم في الهوى وذكر النفس وتحذيرها من الهوى ومدح الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة والسلام- وهو الغرض الرئيس من القصيدتين – والإشارة إلى الديانات السابقة والحضارات وذكر الغار والاستجارة باسم الرسول ــ ﷺ ــ والجهاد والمجاهدين.

واللافت للنظر أن الشاعرين لم يتبعا ترتيباً معيناً في معالجة المعاني الجزئية فكلما عنَّ لأحدهما الحديث عن أمر لا يتأخر بذكره وإن تقدمه ما يليه في التاريخ وكأن القصيدتين نفثات شعورية تصدر عن تجربة واحدة إلى حد ما وهذه سمة يبدو أن شوقي والبوصيري يندرجان ضمن شعراء العرب القدامى فغالباً ما نجد أبيات قصائدهم أبياتاً متناثرة تستطيع أن تشكلها كيفما تشاء وقد هوجم شوقي على هذا الأساس[١٨]،مما دفعني إلى أن أرسم أولاً لوحتي القصيدتين موازناً بينهما تاركاً الحكم للقارئ بعد أن يطّلع على التحليل الآتي المشفوع بقراءة القصيدتين:- بدأت قصيدة البوصيري بالنسيب وذكر اللائم من المطلع المذكور حتى البيت الثاني عشر وبدأ هذه الأبيات مقلداً لأساليب العرب

القدامى في مطالع قصائدهم ذاك أنه أختار ألفاظا دالة على أماكن ((**كذي سلم**)) لمناطق لا علاقة له بها وهناك من يعتذر له بأن ((**ذي سلم**)) له علاقة بمدينة الرسول ﷺ وهذا الاعتذار غير مقبول لورود مفردات وتراكيب في أبيات لاحقة تكشف بوضوح التقليد ((**كاظمة**)) و اضم والبان والعلم والصبان والطلل، أما شوقي فالبداية كانت لا تختلف كثيراً عن البوصيري ولو أنه وظف لذلك أربعة وعشرين بيتاً فمطلعه يشير إلى التقليد مع أن زكي مبارك تحدث عن واقعية المطلع [١٩]، **ولا أرى** أي شيء من هذا القبيل بل على العكس **أن** مفرداته وتراكيبه وأساليبه هنا تقليد محض كالبوصيري بل أكثر ((ريم على القاع والبان والعلم وأحلَّ سفك دمي والأشهر الحرم مؤزرٍ والأسد، ساكن القاع وساكن الأجم)) واستعجل شوقي حديثه عن ((**اللائم في الهوى**)) ذاكراً بيتين بينما خصص البوصيري أربعة أبيات للمعنى نفسه واستطاع شوقي أن يعبر عن المعاني التي أراد البوصيري التعبير عنها مختصراً ومبينا غرضه ثم أن النداء الذي أستخدمه شوقي ((**يا لائمي في هواه**)) أكثر التصاقاً بالمطلع لوجود الضمير ((**هاء**)) التي تعود على (**ريم**)، **بينما النداء الذي استخدمه البوصيري ((يا لائمي في الهوى العذري...))** كان مناسباً لمطلعه إذ لم يحدد كما حدد شوقي، وقد اعتمد شوقي الإذن غير الواعية ليوصل علم الإصغاء للعاذل على العكس من البوصيري فقد أطلق التعبير ((**لست أسمعه..**)).

أما ما يبقى من أبيات النسيب عن البوصيري فإنها تنم عن عذرية الهوى التي صرح بها ولم أجد أي ذكر لمحاسن أو مفاتن المرأة إلا ذكر الخدين ((**مثل البهار على خديك..**)) وقد جاء متفقاً مع سياق الوجد واللوعة والعبرة والمشقة ولم يقصد به أيَّ إشارة إلى حس يراد من ورائه التغزل بأشياء محسوسة على طريقة الشعراء الماجنين، أما شوقي فقد استعجل كما قلت قبل قليل ثم اندفع مسرعاً إلى الغزل ((**يا ناعس الطرف**)) **وكان** هيناً في الأبيات ٨، ٩، ١٠، ١١ ولكنه اندفع في الأبيات ١٢....٢٢ ليقترب أكثر من التغزل بمفاتن المرأة الحسية مع أنه لم يحدد امرأة معينة وإنما حديثه كان جنس النساء ((**السافرات والقاتلات والمضرمات والحاملات**)) وقد شعر بهذا الاندفاع فأراد أن يخفف من نقد القارئ على اعتبار أن هذه الأبيات وردت في قصيدة مخصصة لمدح رسول كريم يذكره ببيتين يخففان إلى حد ما من هذا النقد ((**بيني وبينك...**)) و ((**لم أغش مغناك إذ ساوى بين حجب سمر القنا والعفة العذرية مؤكداً أن كل ما تحدث عنه ما هو إلا في**

غضون كرى...) **وإذا** أردنا أن نسجل له تقدماً في هذا الجزء من القصيدة فإنه يكمن في اختصاره الحديث مع اللائم في الهوى، واندفاعه في الحديث عن الجنس الآخر، انـدفاعاً ينم عن خبرة في الحب والغزل وذوق رفيع في تحسس الجمال وأشكاله وأنواعه وآثـاره ومن النقاد من يرى أن ذلك عيب في القصيدة هذه ولا أرى في ذلك عيباً فالشعر يتـدفق من الشاعر كما يحس وليس كما يعقل ومع هذا فإن مؤشرات الالتزام بمبـادىء الإسـلام عند البوصيري كما كشفت قصيدة **البردة أكثر مما هو عليه الأمر عند صاحبه ومؤثرات البيئة والزمان والمكان على الشاعرين في هذا واضحة فالأمر يختلف من شـاعر زهـد وتصوف عـاش** حياة بسيطة لم يكن فيها إلا عابداً لله تعالى في أكثر الأحيان عن شـاعر آخر عاش عيشة بذخ وسرور ومتعة وقصور وحسناوات هنا وهناك وفي عـصر كانـت فيه مظاهر التمتع بجمال الجنس الآخر متاحة في مكانه أو في الأماكن التي قصدها فـي أسفاره الكثيرة.

ثم انتقل البوصيري إلى التحذير من هوى النفس ((١٣.....٢٨)) وقد اعتمـد في هذا التحذير على القرآن الكريم إذ بدأ الأبيات بتسمية النفس بالأمارة بالـسوء وأنهـا جاهلة إنذار الشيب والهرم معتمداً أساليب عربية قديمة ((**جماحا نجعل وألجم**)) واعتمـاد المقارنة بين حبها للمعاصي وحبها للذة الطعام والإفراط فيه ومقارنتهـا بالطفـل وحبـه للرضاعة ثم عاد مرة أخرى لذكر الطعام وساوى بين حمية النفس وحمية الطعام وقرنهـا بالشيطان وطلب مخالفتهما معاً وواضح أنه اعتمد ما تعارف عليه الناس بأسلوب سهل لا نجد فيه خيالاً ولا صوراً شعرية تبعث الدهشة لدى القارىء وإنما كان كل ما فعله رصفاً ونظماً للكلام كثيراً ما تردد على ألسن العرب القدامى معتمداً التشبيه في كثير من الأحيان أما شوقي فقد خصص الأبيات ((٢٥.....٣٨)) لهذا الجزء من القصيدة وقـد ارتـبط حديثه بالحكمة أكثر مما هو عليه الأمر عند البوصيري وقد حدث النفس عن الدنيا علـى طريقة العرب الأوائل في وضع اللوم في حدوث المصائب على ((**الدنيا والزمان والعصر**)) وقدَّم حكماً منها مقارنة ما تظهر الدنيا وما تخفي وتقلبها بين النعمة والعافية والبـؤس والألم والمرض موظفاً اللغة بشكل يدهش القارىء إذ يخلق صوراً جميلة فيها من التقابل بين ضد تحفى كل مبكية... بدا لك منها حسن مبتسم، فضي بتقواك فاهاً... كما يفض أذى الرقشاء....، يغنى الزمان....يبقى من إساءتها، كم نائم لا يراهـا وهـي سـاهرة.....،

النعمى والعافية والبؤس والمرض ومسودة الصحف ومبيضة اللمم، معززاً ذلك بيتين في الحكمة من أروع ما يكون.

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها في خيرعافية والنفس من شرها في مرتع وخم

ومن الجدير بالذكر أنه اخذ من البوصيري ((**الحمية والتخم، والجياد والشكم ومقارنة النفس باندفاع الجياد**)).

ثم جاء غرض القصيدتين الرئيس مدح الرسول الأعظم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى آله وقد تضمن في قصيدة البوصيري ما يأتي: ذكر النصارى وما أدعوه في نبيهم ((٤٧)) وذكر الفرس ((٦)) وذكر أبرهة (٧٠) ومعجزة الرسول ﷺ ((٧٢)) وذكر النار ٧٦ -٧٩ والاستجارة بالرسول ﷺ٨٠-٨١ والوحي والنبوة ٨٢-٨٧، ومدح القرآن الكريم ٨٨...١٠٤، والأسراء ١٠٥-١١٧ والجهاد والمجاهدين ١١٨-١٣٩ والتوسل إلى الرسول ﷺ١٤٠ وذكر تسميته محمد ١٤٥ والمناجاة ١٥١ وذكر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ١٥٩ وذكر آل النبي محمد ﷺ وصحبه ١٦٠,١٩٠.

أما شوقي فقد احتوى الجزء الرئيس من القصيدة: طلب المغفرة ٣٩-٤٦ وذكر الفرس٧٧، وذكر الروم ٨٠-٨٢ والإسراء ٨٣-٨٩ والغار ٩٤-٩٩ وتسميته محمداً ١٠٠ وذكر البردة وصاحبها ١٠١-١٠٤ ومقارنة الرسول ﷺ بعيسى عليه السلام١١٦ وذكر الجهاد ١١٨ وذكر عيسى عليه السلام مرة أخرى ١٢٥، ومقارنة بين المسيحية والإسلام ١٣٤، وذكر ألمجاهدين، وذكر روما وأثينا وكسرى رعمسيس ١٥٥، وذكر بغداد والرشيد والمأمون والعلم والخلفاء الراشدين ١٥٨، والصلاة على الرسول وآله عليهم السلام ١٧٧، وذكر ما حلَّ بدولة المسلمين والنهاية التي آلت إليها وطلب اللطف من الباري عز وجل بشفاعة الرسول ﷺ لتكون حسن الخاتمة كما كان البدء حسناً١٨٨.....١٩٠ .

وواضح أن الشاعرين اشتركا في أغلب المعاني التي وردت في قصيدتيهما ولم يفترقا إلا بعدم ذكر ابرهة لدى شوقي الذي ذكره البوصيري في البيت ٧٠، وتقدم

البوصيري بتخصيص ٩ تسعة أبيات لمناجاة الرسول ﷺ وتفرد شوقي بذكر الروم ٨٠-٨٢ وذكر البردة وهذا أمر طبيعي ولا يعد زيادة، ومقارنة الرسول ﷺ بعيسى عليه السلام مرتين الأولى في ١١٦ والثانية في ١٢٥ مستغلا الأخيرة للمقارنة بين المسيحية والإسلام مدافعاً عن جهاد المسلمين وما يصنعه المسيحيون من أسلحة تدمر البشرية، وذكر روما وأثينا وكسرى رعمسيس ١٥٥ مستغلاً هذا الذكر للمقارنة بينهما وبين حضارة المسلمين في بغداد ودور الخلفاء العباسيين وخاصة الرشيد والمأمون، ونستطيع أن نعتذر لشوقي بعدم ذكر أبرهة لوروده عرضاً في سياق الحديث عن معجزة الرسول ﷺ التي بدأت بانهيار الفرس ورمز قوتهم كسرى بل كل من يعبد غير الله تعالى أما المناجاة التي وجدناها في قصيدة البوصيري فإن القارىء يجد منها في قصيدة شوقي ولكن بشكل متفرق مزجت بطلب المغفرة ٣٩-٤٦ ومع هذا فان أبيات المناجاة تنم عن الصلة الوثيقة بين البوصيري والرسول ﷺ فكان صادقاً في حبه للرسول ﷺ فتدفقت تلك الأبيات دفقات شعورية تحس بنبضها المختلط بالقلب والروح والوجدان وهذا لا يعني أن شوقي لم يكن محباً للرسول ﷺ وإنما المقصود أن اثر الزهد والتصوف بادٍ بوضوح على شعر البوصيري والأمر لم يكن في شاعر – أقصد شوقي – نشأ وتربى وترعرع في البلاط وازدحمت أمامه مسببات اللهو مما جعل التعبير في أمر كهذا يأتي تقليداً وألفاظه تنم عن السطحية في التعبير المفضية إلى تقريرية القول، وكما اعتذرنا لشوقي نعتذر للبوصيري في أنه لم يذكر الروم أو روما أو أثينا أو رعمسيس أو مقارنة المسيحية بالإسلام و بغداد أو الرشيد... لان ظروف العصر الحديث قد أملت على شوقي ذكر ذلك لأنه رأى أن الأمة التي قادت العالم إلى النور الآن تتناثر أشلاء بأيدي المستعمرين الذين فرضوا ذلك بالقوة والتفنن في الأسلحة وكثرة الحروب والقتل والتدمير فكانت مشاعره تتلون بلون الألم من تلك الحملة المسعورة التي قادت الدول إلى اعتناق المسيحية للسيطرة على العالم وعاثت فيه فساداً في حربيها العالميتين وكيف وظفت علومها ومصانعها وإمكاناتها المادية والبشرية لصنع الأسلحة الفتاكة في الوقت الذي كان فيه المسلمون في أثناء انتشارهم على العالم يدعون إلى الهداية والنور والعلم ولهذا حرص شوقي على ذكر بغداد والرشيد والمأمون فضلاً عن أنه يريد معادلة ميزان القوة تقابلها القوة والمجد يقابله

المجد والعلم موظفاً لفائدة البشرية يقابله العلم لإبادة البشرية والسيطرة على ممتلكاتها ويرى إن ما حلّ بالمسلمين ما هو إلا قضاء الله تعالى الذي أشار إليه في خاتمة القصيدة وطلب منه تعالى اللطف بأمة المسلمين وان يجعل خاتمة وجودهم في هذه الحياة الدنيا كما كان المبتدأ حسناً.

مكونات الشعرية لدى الشاعرين

أولاً: البوصيري

١- وظف الاستفهام المجازي في الأبيات ١، ٣، ٤ لخلق الدهشة لدى المتلقي.

٢- اعتماد الألوان الشعرية التي تعتمد على التشبيه في الأبيات ٧، ١٦، ١٨، ٤٩ وغيرها كثير.

٣- اعتماد الصورة البديعية كالجناس والطباق والمقابلة في الأبيات ١٢، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٣٤، ٣٩، ٥٥....

٤- اعتماد المجاز ٧٢، ٧٣....

٥- اعتماد الصور الشعرية المبنية على استغلال الخيال ليدهش المتلقي ٦٠، ٦١، ٦٢.....

٦- الاتكاء على أساليب القران الكريم ومعانيه لرفد القصيدة بأفكار ومعاني تدل على تشرب آيات القران الكريم في مخيلة الشاعر ٩١، ٩٢، ٩٣,١٠٤٤..

٧- طغت في الحديث عن الجهاد خاصة لغة الحماسة المبنية على الاندفاع الفروسي للعرب القدامى ١١٨-١٣٨.

٨- كان للزهد والتصوف أثر واضح على المناجاة التي وردت في القصيدة وفي الوقت نفسه شكلت عائقاً أمام اندفاعه في الحديث عن النساء.

ثانياً: شوقي

١- اعتمد الصورة البديعية القائمة على الجناس والطباق والمقابلة وبشكل يتفوق فيه كثيراً على البوصيري إذ أنه يعمد دائماً لاستغلال التضاد أو التجانس أو المقابلة

أو غيرها لإبراز معانيه بحلة جميلة قادرة على التأثير وخلق الدهشة لدى المتلقي ٧٣.....٨٢، ٣٧، ٣١، ٢٢، ١٨، ١٦،.....

٢- الصور الشعرية المبنية على الوصف الدقيق لمواطن الحسن والجمال في المرأة ولاسيما الأبيات التي تلت المطلع وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق معللاً أسبابه ٨...٢٤.

٣- الصدق في الشكوى من رغبات النفس وارتكاب الذنوب وتحذيرها من تغلب الأزمان وما ذلك إلا صدى لحياة شوقي فالنفس وذنوبها أتت من ذلك العيش الرغيد في القصور ودفعه المحتمل إلى ارتكاب المعاصي أما تغلب الأزمان فقد عاش شوقي ذلك الواقع وكيف آلت به الأمور من ذلك الترف إلى شخص منفي يعيش عذاب النفي وعسر الحال.

٤- المقدرة على دخول الغرض الرئيس مدح الرسول ﷺ دون أن تشعر بالانتقالة تلك إذ نفذ من الحديث مع النفس إلى كثرة الذنوب إلى الرجاء إلى الشفاعة إلى الرسول ﷺ شكل ذلك بتواصل بارع يدل على حسن التخلص كما سماه العرب القدامى في نقدهم.

٥- القدرة على صياغة حقائق التاريخ بصور شعرية جميلة صادقة معبرة عن الحدث وشرف قريش وحواء وبحيرا روح القدس وبطحاء مكة.

٦- استغل مجد العرب والإسلام ليفخر على المسيحية التي اندفعت إلى القتل والتدمير في الحرب العالمية الأولى.

٧- الشاعر احمد شوقي أكثر قدرة في تفصيل الحوادث التاريخية أو مفاصل التاريخ المهمة وأثرها في جعل صورة الإسلام ناصعة البياض مقارنة بالأديان والحضارات الأخرى من البوصيري .

الخاتمة

وبعد أترك للقارىء أن يتصفح هذه الجولة في قصيدتي البردة للبوصيري ونهج البردة لشوقي ليتعرف على أنموذج صادق في معارضة القصائد وكيف تفتح المعارضة

مجالاً رحباً للنظم في الغرض الواحد وبالوزن والقافية نفسهما بل تكون مسبباً مهماً للإبداع لان كثرة التبصر في القصيدة السابقة تفسح المجال لان تتثقف القرائح وتتشظى المعاني وتندفع في اطر خاصة بالشاعر المعارض أكثر مما يكون التقليد إطارا لها ولهذا وجدنا سير شوقي في طريقه هو وليس في الطريق الذي رسمه البوصيري في الوقت الذي أفاد منه كثيراً وشاركه كثيراً ولكن بقي الأول البوصيري وبقيت البردة قصيدة جميلة وجاء شوقي وجاءت معه قصيدته نهج البردة لتكون قصيدة أخرى من قصائد عربية وظفها شعراؤها لمدح الرسول الأعظم ﷺ.

الهوامش

١-ينظر الموازنات التي عقدها زكي مبارك في كتابه ((الموازنة بين الشعراء)) التي عارض فيها ابن دراج الأندلسي أبا نؤاس ٢٤٦.

٢- الحيوان، الجاحظ ١/١٣٠-١٣٢.

٣- عيار الشعر، ابن طباطبا ٥-١٠.

٤- المقدمة، ابن خلدون ١٢٩٦.

٥- المصدر نفسه ١٣٠٤.

٦- ينظر قصيدتا البردة بخط عيسى سلوم العباسي مكتبة النقاد ، بغداد، شارع المتنبي ؛نهج البردة في الشوقيات لأحمد شوقي.

٧- ينظر مثلاً محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات الأدبية في النقد العربي.

٨- ينظر: أساليب تدريس العلوم في مراحل التعليم العام، د. خليل يوسف، الإمارات العربية المتحدة، دبي، ٧٠.

٩- ينظر أساليب تدريس العلوم، عايش محمود زبون، ١٧٠.

١٠-القصائد هي نهج البردة وسينيته في معارضة البحتري واندلسيته في معارضة ابن زيدون.

١١-مثلاً: من القديم البحتري وابن زيدون ومن الحديث شوقي والحصري.

١٢-كأن يرغب أمراء الأندلس أن يجاري شعراؤهم شعراء الدولة العباسية في بغداد وهو نوع من المنافسة بين الأمراء وليس الشعراء وما الشعراء إلا أدوات فيها، الموازنة بين الشعراء زكي مبارك ٢٤٦.

١٣- شوقي شاعر معاصر، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٢٧.

١٤–الموازنة بين الشعراء، زكي مبارك، ١٧٤.

١٥–الموازنة، الآمدي، ٦/١.

١٦–ينظر مثلاً: الموازنة بين الشعراء ١٧٤ – ٢٣٤. ينظر:أمثلة للحكم على قصائد الشعراء الثلاثة البوصيري والبارودي وشوقي وكيف كانت طريقته في الموازنة فضلاً عن أن الكتاب جميعه يجد فيه القارىء موازنات لقصائد أو لأبيات اشتركت في المعاني وقصد فيها مجاراة سابقة.

١٧–ينظر : حصاد الهشيم المازني ٦٨–٧٦ .

مصادر البحث

١- أساليب تدريس العلوم، عايش محمد زبون، الشروق ، ١٩٩٩.

٢- بردة المدائح المباركة البوصيري، مكتبة النقاء ببغداد شارع المتنبي.

٣- تدريس العلوم في مراحل التعليم العام، د. خليل يوسف، الأمارات العربية المتحدة، ط١.

٤- حصاد الهشيم المازني، إبراهيم عبد القادر المازني، المطبعة العصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٤٨.

٥- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، منشورات الراية، ط٣، ١٩٦٩.

٦- شوقي شاعر العصر الحديث، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.

٧- الشوقيات ، احمد شوقي .

٨- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق د. طه الحاجري، شركة فن الطباعة، القاهرة، ١٩٥٦.

٩- مشكلة السرقات الأدبية في النقد العربي، محمد مصطفى هدارة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٨.

١٠- المقدمة، ابن خلدون، دار العلم، بيروت، ط١، ١٩٧٨.

١١- الموازنة، الآمدي، تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢.

١٢- الموازنة، د. زكي مبارك، دار الكتاب العربي، القاهرة.